حركات الإنجيليّين الجُدد: معنى ظهورها وانتشارها

عزالدين عناية ■

تُمثّل أمريكا فـي التاريـخ المعاصر أكبر خـزّان للكنائس والحركات الدينيّة المسيحيّة، وهو خزّان متحرّك ومؤثّر في الخيارات الاجتماعيّة والتعليميّة والتربويّة، بل وفي الخيارات السياسيّة أيضاً، بما له من أثر واضـح على جملة من السياسـيّين والتوجّهات الحزبيّة. لم يبق هذا الحراك الديني حبيـس الولايات المتحدة، بل امتدّت آثاره إلى آفاق بعيدة في العالم، من أمريكا الجنوبية المجاورة إلى أوروبا إلى إفريقيا وآسـيا. هذا الحـراك الديني ـ الذي ظهرت طلائعه مع زحف الكنائس المسيحية والنِّحَل الدينية والمذاهب الألْفيّة في شـتّى أنحاء العالم ـ يبقى النعت الغالب عليه الإنجيليون الجُدد، وإن تنوّعت المكوّنات وتباينت الطروحات أحياناً، ليلوح ما يجمع هذا النمط من التديّن، رغم شدّة التنوّع، وهو الانطلاق من مفهوم جديد فـي الدين والدنيـا يقطع مـع النظرة الكلاسـيكيّة للبروتسـتانتيّة التقليدية، ومع مختلف الرؤى النابعة من «الإصلاح» الأوروبي.

كما يميّز الساحة السياسيّة الأمريكيّة تداخلٌ فريدٌ بين الديني والسياسي ـ انبنت فيه ضوابط قامت على أعراف وتقاليد تأسيسية،

■ أكاديمي تونسي مقيم في إيطاليا.

جــرى تلخيصها في صيغــة «الدِّين المدنــي»، تعبِّر عن جوهــر العلاقة بين عنصري الدين والسياسة، اللّذيْن طالما تمايزا في بلدان غربية أخرى إلى حدّ الانفصال، على النحو الذي نجده في فرنســا. فالمتابع للتداخل الحاصل في الشأن الديني السياسي في أمريكا يلحظ هذا التمازج الذي يصعب فهمه على الأوروبي، الذي اعتاد نمطاً مغايراً في حضور الديني والسياسي. ثمة من يُطلق على ذلك الواقع «الخصوصيّة الأمريكيّة»، في مقابل نظيره الأوروبي، بأوجهه الكاثوليكيّة والبروتســتانتيّة والأنغليكانيّة. وتســتند تلــك الخصوصية ـ فيما تستند إليه ـ إلى نســبة تديّن عالية مقارنة بالمجتمعات الغربية الأخرى، ولا تنحصر تلك الميزة في الأوساط الأمريكية بالدائرة الشخصية، بل تمتد إلى المجال العمومي[1]؛ فعلى مدى التاريخ الأمريكي مَثَّل حضور الدين في المجال العمومي عنصراً مميّزاً ضمن النشــاط العام. هذا الحضور القويّ للدِّين في المجال العام دفع كثيراً من الباحثين ـ على غرار روبار بلّاه وسيباستيان فات ـ إلى إطلاق نعــت «الدِّين المدني» عليه. صحيح يعود منشــأ مصطلح «الدِّين المدنيّ» إلى جان جاك روسو[2]، ولكنّ تنزيلَه على الواقع الأمريكي هو من وحي متابِعين للشأن الديني. واللافت في هذا الطابع المدنيّ الدِّينيّ غياب التناقض أو التضارب مع مفهــوم الدولة اللائكيــة، بما يعني التعايش بيــن المكوَّنين «الدِّين المدنيّ» و«لائكية الدولة»[3]. من هذا الباب شكّل الدِّين أحدَ الأعمدة التي تقوم عليها الدولة، اســتند فيها إلى انســجام بين الثنائــيّ في التصور الأمريكي، على خلاف ما يمثّله ذلك من تضارب في بعض الوقائع السياســيّة الأخرى. ما جعل أليكســي دي توكفيل يقرّ بالتماهي بيــن الدِّين والدولة في الديمقراطية الأمريكية، فضلاً عن سنده القويّ للديمقراطية، وحضوره عاملاً من عوامل تماسك المؤسّسات الجمهورية[4].

1 ـ Rodney Stark, *Il trionfo della fede*, Lindau, Torino 2015, pp. 257-285.

2 ـ انظر موريس باردييه: روسّــو ونظرية الدِّين المدنيّ، ترجمة: عزالدين عناية، مجلة «الحياة الثقافية»، تونس، العدد: 86 السنة: 22، يونيو 1997، ص 21 ـ 30.

3 ـ Jean Baubérot, *La laïcité à l'épreuve. Religions et libertés dans le monde*, Universalis, Paris 2004, p. 25.

4 ـ Alexis de Tocqueville, *De la démocratie en Amérique*, Gallimard, Paris 1986, p. 427.

في معنى الظاهرة الإنجيلية الجديدة

يدور فحوى السؤال المطروح الذي يعنينا حول أيّ أرضية دينيّة وأيّ تأويلية لاهوتية يقوم التوجه الإنجيلي بوجه عام؟ لا شكّ أنّ التزاوج بين «تحرّر السوق الدِّينية» في أمريكا وروح المبادرة والابتكار حتى في المجال الديني ـ هما من الدوافع الرئيسة في منشأ هذه الحركات وتطورها؛ فالواقع الديني الأمريكي لا يشبه أي واقع غربيّ آخر، سواء أكان كاثوليكيّاً أم بروتستانتيّاً أم أنغليكانيّاً، من حيث تحرر الرأسمال الديني فيه عن سلطة الدولة. لكنّ التحرّرَ من سلطة الدولة لا يعني في المفهوم الأمريكي تملّص الدولة من الدِّين أو استقلالها عنه، بل يحضر ذلك الدين في بنية التشكّل ذاتها؛ فالسياق الأمريكي في التعايش مع الدين واستبطانه في البناء الاجتماعي غير السياق الأوروبي، وهو ما أسلفتُ الإشارة إليه في مفهوم «الدِّين المدنيّ». من هذا الباب حصل التمايز عمّا تشهده أوروبا، حتى ليبدو الأمر غير مألوف في المخيال الأوروبي عامة.

يعود منشأ مصطلح «الدِّين المدنيّ» إلى جان جاك روسو، ولكنّ تنزيلَه على الواقع الأمريكي هو من وحي متابِعين للشأن الدينيّ. واللافت في هذا الطابع المدنيّ الدِّينيّ غياب التناقض أو التضارب مع مفهوم الدولة اللائكية.

ويجد هذا الحضور المكثّف للدِّين في الواقع الأمريكي سَنَدَه في عيش الأمريكي على وقع أسطورة الحرية في شتى المجالات، ما جعل الدِّين ذاته يمتح من هذا التصور الطليق في الاعتقاد وفي ممارسة الاعتقاد، الذي قلّ أن يُظهرَه الساسة الأوروبيون الغربيون بوصفه جانباً شخصياً في سلوكياتهم، في حين لا يرى نُظراؤُهم الأمريكان غضاضةً في الكشف عنه.

وفي تحديد أصول التيّار الإنجيليّ في الولايات المتحدة يذهب جانب من الباحثين إلى عدِّ الظاهرة في جذورها تعود إلى الراعي إيساك وليام كنيون Esek William Kenyon (1867 ـ 1948)، الذي يتلخّص لاهوته في القول بإمكانية تغيير الواقع المادي بقوّة الإيمان. بما يفيد في الترجمة الفورية لهذا اللاهوت تكديس الثروة المادية والعيش في رخاء وصحّة، في حين يقود فتور

الإيمان إلــى الفاقة والمرض والتعاســة. وتذهب الباحثة كايــت وارد (Kate Ward) إلى ورود ذلك التأثير من نظرية آدم سميث بشأن الأحاسيس الخُلقية[5]، حيث الإعجاب بمن يحقّق نجاحاً في الحيــاة. يتضافر هذا التوجه من منظور أليكسيس توكفيل في كتاب «**الديمقراطية الأمريكية**» (1831) مع فرادة النهج الأمريكي الذي يفسح مكاناً جليلاً للدِّين. ويتجلّى هذا التزاوج بين الديمقراطية والدِّين ـ على مســتوى عام ـ في شــعار «باللّه نثق» (*In God we trust*)، وعلى مســتوى مدقّق في خطابات الرؤســاء الأمريكيين، التي تغدو فيها أمريكا نور الأمم، وهي رؤيــة مســيحيانية توراتية تجــد جذورها في أســطورة عميقة مستوحاة من سِــفريْ ميخا وإشــعياء. يرد في السِّــفر الأول توصيف لذلك العالم المنشود الذي يقضي فيه أمير الســلام بين شعوب كثيرة، «فيُنصِف لأممٍ قويّة بعيدة، فيطبعون سيوفَهم سككاً ورماحهم مناجلَ. لا ترفع أمّةٌ على أمّةٍ ســيفاً ولا يتعلّمون فنون الحرب فيما بعد» (ميخــا 4: 3)، وهو الذي في عهده «يسكن الذئبُ مع الخروف، ويربضُ النّمر مع الجدْيِ والعجل والشّبل والمسمَّن معاً، وصبيٌّ صغيرٌ يسوقها. والبقرة والدبّة ترعيان، تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقرِ يأكل تبناً، ويلعب الصغير على سَرَب الصِّلّ ويمدّ الفطيم يدَه على جُحْر الأُفعوان» (إشــعياء 11: 6 ـ 10). ضمن هذ السياق الطوباويّ وجد «إنجيل الرخــاء» لدى التيارات الإنجيلية الحديثــة ترجمته في وصايا المســيح: «الحق أقول لكم: إن أيَّ من قال لهذا الجبــل: انقلع وانطرح في البحر! ولا يشكّ في قلبه، بل يؤمن أنّ ما يقوله سيحدث، فما يقوله يتمّ له. لهذا السبب أقول لكم: إن ما تطلبونه وتصلّون لأجله، فآمنوا أنكم قد نِلتُموه، فَيتِمَّ لكم» (مرقس 11: 23 ـ 24).

هذا وقد انتشر الفكر الإنجيليّ الجديد بقوّة مؤسسات «الميغا تشيرش/ *Mega Church*» (الكنائس العملاقة)، وإعلام «التليفانجيليست» (المبشِّرين التلفزيونيين)، وبكاريزما المبشِّرين (لبســاطة الدعوة وقوة تأثيرها). في هذا الإطار لا بدّ أن نضعَ في الحسبان قوّة نشاط «الكنائس العملاقة» التي

5 ـ K. Ward, «Mere Poverty Excites Little Compassion»: Adam Smith, Moral Judgment and the Poor, in *The Heythrop Journal*, Marzo 2015.

تجلب ألوف الأتباع، الذين يتردّدون عليها بحثاً عن تلبية حاجاتهم الروحيّة والمعيشيّة. فشخصيات مثل المبشِّرين التلفزيونيين: أورال روبرتس (Oral Roberts) وپات روبرتسون (Pat Robertson) وبيني هين (Benny Hinn) وروبرت تيلتون (Robert Tilton) ويوئيل أوستين (Joel Osteen) وجويس ماير (Joyce Meyer) وآخرين ـ عملوا على مدى عقود في ضخّ الوعي الديني المسيحي بلاهوت إنجيليّ كان وراء صُنعِ الظاهرة الإنجيلية. يكفي أن نذكر أنّ برنامجَ جويس ماير التلفزيونيّ «**كيف تستمتع بالحياة يوميّا**» كان يصل إلى ثلثيْ سكان المعمورة عبر الراديو والتلفزيون، ويُتَرجم إلى 38 لغة. وفي هذا الاشتغال الديني الحثيث ينبغي أن ندركَ التحالف الوثيق بين الإعلام والاقتصاد والسياسة في تفشّي الظاهرة الإنجيلية[6]. ولا شكّ أنّ هذا اللاهوت يلعب دوراً وظيفيّاً ضمن إطار الفلسفة السياسيّة الاقتصادية النيوليبرالية، بما يعني أنّ التطوّر الإنجيليّ الحاصل في الولايات المتحدة هو نتاج تلك المعادلة الدينيّة السياسيّة. حيث يدفع الاستبطان للدّين المبسّط نحو نوع من الإيمان بالخوارق والمعاجز. اِشتغل فيها عددٌ من المبشِّرين على تمثّلِ الروح القُدس، أحد أقانيم الثالوث المسيحي جنب الآب والابن، بمثابة المانح للنعمة الخاصة. وإذا ما كان عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر يربط بين البروتستانتية والتطوّر الرأسمالي فإن «لاهوتيي الرّفاه» الإنجيلي يروّجون في الراهن لفكرة أنّ الغِنى هو في ارتباط وثيق مع الإيمان الشخصي، وفي حلٍّ تامٍّ من معناه الاجتماعي الاقتصادي المبنيّ على التقشّف والزهد العمليَّيْن.

انتشر الفكر الإنجيليّ الجديد بقوّة مؤسسات «الميغا شيرش / Mega Church» (الكنائس العملاقة)، وإعلام «التليفانجيليست» (المبشِّرين التلفزيونيين)، وبكاريزما المبشِّرين (لبساطة الدعوة وقوة تأثيرها).

6 ـ خلال العام 2015 جرى لقاء في «برج ترمب» حضره جمع من «التليفانجيليست» صلّوا لأجل الرئيس الأمريكي الحالي، ووضعوا أيديهم على هامته في حركة رمزية للتّطويب والمباركة. انظر الفيديو على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=EQ18exdhR6I

ينبغي ألّا يُخفي هذا العرض التباينات العديدة بين الإنجيليين الجدد، وما يشــهده هذا التكتّل من تطوّر حثيث وملحوظ، حيث يُقــدَّر عددهم في العالم بأربعمائة مليون، وفي الولايات المتحدة وحدها بنحو ثمانين مليوناً. ولو وضعنا الإنجيليّين ضمن إطار مجرّة البنتكوســتاليّين[7] ربما يتّضح الأمر بشكل أعمق، حيث تُعَدّ الحركة البنتكوستالية حركة دينيّة حديثة العهد مقارنة بالبروتستانتية التي أتمّت قرنها الخامس منذ سنتين. فمن ناحية عدديّة يمكن الحديث اليوم عن تجاوز البنتكوستالية البروتســتانتية التاريخية؛ فلدى هذا التيار قدرة على التأقلــم، ينحو فيها لعدم التصــادم مع الأوضاع الدينية الأخــرى؛ فهناك في البنتكوســتالية قدرة على التعايش مع ســياقات ثقافية مغايرة، وعلى تشــرّب التقاليد الدينية المغايرة دون نفور يذكر. لعلّ ذلك عائد بالأساس إلى غياب الهرمية الصارمة في التنظيمات البنتكوستالية، وهو ما يخلق مناخاً من الحرية الدِّينية لا يتوافر في غيرها من المذاهب المسيحية، فالصرامة اللاهوتية التي نجدها في الكاثوليكية تمثّل عائقاً أحياناً للتعايــش مع وقائع مغايرة. ثمة من يفسّــر الأمر بأنّ تيّار الإنجيليّيــن الجدد ـ والبنتكوســتالية بوجه عام ـ يعيش روحانية ما بعد دغمائية. وما هو معتبَر هو تجربــة الروح، في مجتمعات باتت تميل إلى فردانية التجربة الدينية، وإلى التحرّر من هياكل التســيير الجامدة للدين؛ أي أنّ هناك «ســيولة» فــي فهْمِ الديــن ـ بتعبير المجــري زيغمونت باومان ـ غير منضبطة بمعايير الصرامة المعهودة.

فقد هجر الإنجيليون الجدد أســاليب العمل الديني التقليديّ، بالانحصار في العمل التبشيريّ المعهود إلى مواكبة تحوّلات المجتمعات وحاجاتها. فهناك عملٌ مكثَّف يمسّ مشــاغل الناس، وهــو ما جعل توجّه الإنجيليــن يلقى آذاناً صاغية، ويجلب شرائح باتت ترى في الاقتراب من تلك الحركات حلاً لمشاكلها الدينية والدنيويــة. لقد حوّلــت الإنجيليّات الجديدة الكنائــس إلى مركّبات اجتماعية شاملة، تضمّ رياض الأطفال والمدارس والكلّيات والملاعب والملاهي البريئة. جلب هذا التحول الخدماتي شرائحَ واسعةً من الناس ترى في الدين

7 ـ توجّه بروتستانتي بملامح إفريقية، يطغى فيه هاجس التواصل المباشر للمؤمن مع الألوهية، بناءً على تجربة عاطفية قوامها الإيمان بتنزُّلِ الروح القدس.

تمازجاً بين الغيبي والدنيوي. ومن ثم تيسّر توجيههم نحو معارك انتخابية ونحو الضغط ونحو إقرار تشريعات جديدة.

الأُسس اللّاهوتية للإنجيلية الجديدة

غالباً ما يُلخَّص التصوّرُ الديني للإنجيليّين الجدد في مقولة «لاهوت الرخاء»، وهو الوصف الرائج في وصف هذه الحركة البنتكوستالية؛ حيث يتمحور ذلك اللاهوت حول قناعة بأنّ الربّ يريد لأتباعه حياة الدّعة، بمعنى أن يعيشوا أغنياء من ناحية مادية، وسالمين من ناحية بدنيّة، وسعداء على مستوى شخصي، ليَضعَ هذا النوع من المسيحية سعادة المرء في قلب كل صلاة، جاعلاً من الخالق هو من يلبّي حاجات المؤمن ورغباته. والحال أنّ مرْكَزة الفهم الديني في ذات الفرد يوشك أن يحوّل الإله إلى مجرّد خادم للبشر، وما الكنيسة سوى «مول» للإيمان، وما الدين سوى ظاهرة نفعية لا غير. يمتح هذا التصوّرُ تحديداً من أسطورة «الحلم الأمريكي» (*American dream*)، التي دفعت بالكثيرين إلى هجران بلدانهم والالتحاق بالعالم الجديد لمطاردة هذا الحلم، وقد تداعى إلى ذلك الحلم خلقٌ كثيرٌ من شتى أصقاع العالم. يستند «لاهوت الرخاء» إلى تصور نفعي يضفي ترجمة ميكانيكية على المقولات الدينية، وهي في الواقع تبريرات تخلع على النيوليبرالية الاقتصادية حلّة دينية.

هجر الإنجيليون الجدد أساليب العمل الدينيّ التقليديّ، بالانحصار في العمل التبشيريّ المعهود إلى مواكبة تحوّلات المجتمعات وحاجاتها. فهناك عملٌ مكثَّف يمسّ مشاغل الناس، وهو ما جعل توجّه الإنجيليين يلقى آذاناً صاغية.

لقد لعب الإعلام الديني ـ متمحوراً حول شخص «التِّليفانْجِيلِيسْت» (المبشّر الإنجيلي التّلفزي) ـ دوراً في ترويج هذا التصوّرات داخل أمريكا وخارجها[8]. حيث اعتمدت الظاهرة في رواجها على البثّ التلفزيوني الذي

8 ـ Cfr D. W. Jones – R. Woodbridge, *Health, Wealth & Happiness: Has the Prosperity Gospel Overshadowed the Gospel of Christ?*, Grand Rapids (MI) , Kregel, 2010.

تقدّمه شـخصيات كاريزمية، تتكلّم لغة بسيطة ومباشـرة، تحفّ بها موسيقى واسـتعراضات جذّابة، فضلاً عن قراءة أصولية نفعية للكتاب المقدّس. ووجد خطاب «إنجيل الرخاء» (*Prosperity gospel*) رواجاً منذ مطلع ثمانينيات القرن الماضـي في إفريقيا، لا سـيَّما في دول على غـرار نيجيريـا وكينيا وأوغندا وإفريقيا الجنوبية؛ وبالمثل وجد رواجاً في آسـيا، في الهند وكوريا الجنوبية وبعض مقاطعـات الصين؛ ولكن أمريـكا اللاتينية تميزت بفـوران فاق غيره سنخصّص له حيّزاً خاصاً في الدراسة.

ولو تمعنّا الواقع الأمريكي نجد هذا التوجّه الديني متكوّناً بالأساس من البيض من سكان «حزام التوراة»؛ أي الولايات الجنوبية للولايات المتّحدة، وحاضراً بالخصوص ضمن التكتّل المسـمى باليمين المسـيحيّ. وهو تكتّلٌ يطغى عليه الطابع المحافظ، وتغلب عليه السمة الإنجيلية، التي تضمّ تحت عباءتها خليطاً من النِّحَل الدينية السياسية، التي عادة ما تتحرّك لمعارضة بعض الخيارات السياسية أو تطالب بمطالب محددة على غرار ما نجده مع توجـه «الأغلبيـة الأخلاقيـة» (*Moral Majority*) أو «التحالف المسـيحي» (*Christian Coalition*)، ومن ثم يمثّل التوجه الإنجيلي مزيجاً من الجماعات توحّد بينها مطالـب ذات طابع خُلقيّ بالأسـاس. لكن البنـاء الديني لتلك المكونات يبقى بناءً مسيحيانيّاً بالأساس، يرى في السياسة أداة لبلوغ مآرب دينية تحقّق مضامين الكتاب المقدّس. بهذا الشـكل تحاول الإنجيلية نسْـجَ علاقة مع عالم السياسـة، ليس غرضها الاسـتحواذ على الفعل السياسـي وتوجيهه، ولكن تطويعه لخدمة أهدافها الطوباوية. فضمن التصور الإنجيلي ثمة يقينٌ بأنّ لأمريكا قدَراً مميَّزا، فهي بلدٌ مختارٌ من الربّ، ستمهّد الطريق لتحقيق مملكة الربّ على البسيطة. تخلّلت ذلك المنظور الديني معتقدات في خوض معارك أشـهرها معركة هرمجدون المؤدّية إلـى العصر الألفي، وأنّ انبعاث إسرائيل التوراتية مجدداً أحد أوجه الاقتراب من اليوم الموعود لعودة المسيح المخلّص. كل تلك العدّة الإسـكاتولوجية هي طاقة دافعة وتصورات رابطة بين المؤمنين؛ لكنّ المعتقَد الغيبي الواسـع الانتشار لم يولّد رفضاً لعالم التقنية والإعلام والتطور العلمي، فقد شـكّل التعويل على «الكنيسـة

الإلكترونيــة» أبرز ملامح ذلــك التوجّه، من خلال تجاوز مفهوم الكنيســة التقليدي إلى ركوب موجــة التقنية وتوظيــف قدراتها في ترويج الرســالة الدينيّة على ألسنة جملة من التليفانجيليين، مثل جرّي فالوال وبات روبرتسون وجايمس روبيسون.

لقد شهد الانجيليون تحوّلاً منذ فترة السبعينيات؛ من التعفّف عن السياسة إلى خوض غمارها، ومن استراتيجية دفاعية إلى استراتيجية هجومية تتمثّل في خوض الحمــلات «الصليبية» كما يقولــون، بمدلولها الحديــث لا بمدلولها القديم كما يفهمه العرب والمســلمون، حتى وإن كان الإســلام بالنسبة إلى الانجيلييــن يمثّل خصماً مزعجــاً تنبغي مقاومته. وهو تطوّر في الظاهرة الإنجيلية يأتي ضمن تحوّلٍ عامٍّ شهدته الظواهر الدينية في العالم مع تفجّر الحركات الأصوليــة في الأديــان العالمية، التي تطالــب بعودة للأصــول والإصرار على التشــبّث بالتعاليــم والمظاهــر الدينية. ولذلك يتمسّــك الإنجيليون بالكتاب المقــدّس بوصفه كلمة الرب والفيصل في كافة مسائل الإيمان والحياة.

يرصد المتابعون للظاهرة الإنجيلية في الولايات المتحدة تنامي عدد الأتباع، حيث تقارب نسبة الإنجيليين الربع، أي زهاء الثمانين مليوناً. مع ذلك تبقى ضبابية للنّاظر في استيعاب هذه الحشود بسبب التنوّع الكثيف داخلها.

يرصــد المتابعــون للظاهــرة الإنجيليــة فــي الولايات المتحدة تنامي عدد الأتباع، حيث تقارب نسبة الإنجيليين الربع، أي زهاء الثمانين مليوناً. مع ذلك تبقى ضبابية للنّاظر في استيعاب هذه الحشود بسبب التنوّع الكثيف داخلها. ومن حيث التكوين تبلغ نسبة النساء في هذا الحشد ستّين بالمئة مقابل الرجال، كما أن هذا الحشد يتكون من 90 بالمائة من البيض في الولايات المتحدة، ومن ثم تبقى كنيسة بيضاء بالأساس. هذا وقد مثّلت ظاهرة «الميغا شيرش» (الكنيسة العملاقة) حالة استعراضية تُظهِر قوّة التنظيم وضخامة الحشد في هذه الحركة، كما مثّلت مقرّاً للتآخي والتآلف بين أناس يعيشون ضغط المجتمعات الفردانية. فـ«الميغا شيرش» هي شــكلٌ جديدٌ من عيْشِ الدين، لا ينحصر دورها بوصفها محلّا لأداء الطقوس، بل هي مقرّ للإصغاء للناس والتأثير عليهم.

تضاهي منطقة «حزام التوراة» في أمريكا مساحة الجزائر، يودّ الإنجيليون في أرجائها جعل العيش فيها يسير على إيقاع الكتاب المقدس الاجتماعيّ، بكلّ دلالاته الأُخروية والدينية، كما يرصد الفرنسي سباستيان فات[9]. ثمة اِستبطان عالٍ لمضامين الكتاب المقدّس بين الإنجيليين، وثمة رغبة في عيْش القيم الدينية النابعة من تلك النصوص. فالعالم بالنسبة إلى الإنجيليين الجدد ليس صالة انتظار يجري فيها التأهّب للتحول النهائي، بل هو مجال معركة مفتوح لغزو شعوب العالم باسم الربّ. هذا وقد ساعد الحراك في الهياكل التنظيمية ـ داخل التجمعات البروتستانتية ـ على تغيير القيادات المحافظة واستبدالها بأخرى متحفّزة بشكل مستمرّ.

أمريكا اللاتينية: حقل خصب للإنجيليّين الجدد

تشهد الحركات الإنجيلية تمدّداً متفاوت الدرجة في أنحاء متباعدة عن المركز في الولايات المتحدة. ولسائل أن يسأَلَ كيف جرت عمليات تصدير الفكر الإنجيلي وضمن أي استراتيجيات حصل ذلك ويحصل؟ لعلّ أولى الفضاءات الجديرة بالمتابعة هي فضاء أمريكا اللاتينية، الذي مثّل المختبَر الرئيس والحقل الأنجح في تمدّد الظاهرة الإنجيلية، التي بلغ صداها الشرق الأوسط وإفريقيا وأوساط أخرى نائية في آسيا، لتبق أوروبا الفضاء الأكثر فتوراً في موجة التمدّد هذه.

فمنذ مطلع القرن العشرين بدأ تطلّعٌ جادّ من أطرافٍ نافذة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ لتحجيم الوصاية الكاثوليكية ولتقليص الهيمنة الأوروبية على المجال الديني في أمريكا الجنوبية. أبدت الكنائس البروتستانتية الأمريكية حينها حماسةً لمنافَسة نظيرتها الكاثوليكية في المنطقة. وقد أتى ذلك ضمن توجّهٍ عامّ في أمريكا، يرى في الجماعات البروتستانتية امتداداً للّيبرالية على مستوى ديني واقتصادي. ضمن هذا السياق يندرج تصريح الرئيس الأمريكي تيودور روزڤيلت، خلال عام 1912 بأنّ الكاثوليكية تشكّل

9 ـ Sébastien Fath, *In God we trust. Evangelici e fondamentalisti cristiani negli Stati Uniti*, Lindau, Torino 2005, p. 10.

عقبة أمام تمدّد السياسة الأمريكية جنوب القارة[10]. وهي في الواقع رؤية مستوحاة من سرديّة رائجة أنّ البروتستانتيّة تمثّل السند القِيميّ والإيديولوجيّ للرأسمالية والليبرالية، أساسها التلازم المفتَرض بين الأخلاق البروتستانتية وروح المذهب الرأسمالي، وفق القراءة الفيبرية.

لتستمرّ أوضاع التدافع بين الأطراف البروتستانتية الأمريكية والكنيسة الكاثوليكية الأوروبية حاضرة إلى مشارف الحقبة الراهنة؛ فالكاتب الأمريكي صامويل هانتنغتون يَعُدّ البروتستانتية عاملاً حاسماً في التطوّر، وعنصراً من عناصر القوة الأمريكيّة؛ في مقابل ذلك صرّح جوزيف راتسينغر (البابا لاحقاً)، إبّان تولّيه رئاسة «مجلس مراقبة العقيدة» في روما، في 13 مايو خلال عام 2004: «بأن الولايات المتحدة تدعم بقوة تمدّد البروتستانتية في أمريكا اللاتينية، وهو ما يعني أنّ تراجع الكاثوليكية الحاصل جرّاء عمل الكنائس الحرة، بتعلّة أن الكنيسة الكاثوليكية غير قادرة على ضمان نظام سياسي اقتصادي مستقرّ، ولا تفلح في تربية الأمم، في وقت يُعدّ فيه نموذج الكنائس البروتستانتية الحرّة الأقدر على الإسهام في عملية البناء الديمقراطي، بما يضاهي ما هو جارٍ في الولايات المتحدة». لقد قاد تطور النِّحل البروتستانتية في أمريكا اللاتينية رجالات الكنيسة الكاثوليكية إلى إدانة البروتستانتية بشكل لا نجد له مثيلاً منذ فترة الإصلاح، إلى حدّ مهاجمة البابا يوحنا بولس الثاني «النِّحَل الإنجيلية» ووصفها بـ«الذئاب الضّارية»[11].

لقد قاد تطور النِّحل البروتستانتية في أمريكا اللاتينية رجالات الكنيسة الكاثوليكية إلى إدانة البروتستانتية بشكل لا نجد له مثيلاً منذ فترة الإصلاح، إلى حدّ مهاجمة البابا يوحنا بولس الثاني «النِّحَل الإنجيلية» ووصفها بـ«الذئاب الضّارية».

صحيح شهدت أمريكا اللاتينية حضور طلائع المقيمين البروتستانت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد كان أغلبهم من التجار الإنجليز

10 ـ Stefanini M., *Geopolitica dell'avanzata protestante in America Latina*, «Limes», n° 3, 1993, p. 176

11 ـ «Miami Herald», 16 Octobre 1992.

والأمريكان، وكان محظوراً عليهم إقامة كنائس خاصة؛ ولكنّ موجة التبشير البنتكوستالي العارمة انطلقت مع نزوح جحافل المزارعين المفقَّرين إلى أحزمة المدن الكبرى، واحتضانهم من قِبل المبشّرين البروتستانت. حصل ذلك في أعقاب انعقاد مؤتمر بنما (1916) الذي يمثّل بالنسبة إلى البروتستانت البداية الشكلية لانطلاق الحركة الإنجيلية في أمريكا الجنوبية. وتفاقمت حدة التمدّد البنتكوستالي مع تطوّر الليبرالية الجديدة في أواخر سبعينيات القرن الماضي، بما صحبها من تحرّر السوق التجارية المُرافَق بتحرر السوق الدينية[12].

وضمن من يرى في الإنجيليين إيديولوجيا كولونيالية جديدة للولايات المتحدة، توضّح عالمة الأنثروبولوجيا الإيطالية أليساندرا شاتيني عوامل زحف الإنجيليين على أمريكا اللاتينية قائلة: إنّ فرضية إضفاء الطابع البروتستانتي على المنطقة لا تنبع من «نظرية المؤامرة»، بل تستند إلى مخططات مضبوطة مثل تقرير نيلسون روكفيلر (1969)، ووثائق «سانت فيه» (نيو مكسيكو) الأولى والثانية الصادرة عن «وكالة الاستخبارات الأمريكية»، والعائدة إلى سنتيْ 1980 و1989. يضمّ تقرير «سانت فيه» الثاني إلحاحاً على العامل الثقافي الديني، مبرزاً ضرورة لعب الوكالات الأمريكية دوراً في مراقبة الشأن الديني من خلال تمويل الكنائس الموالية، ودعم «المسيحيين الذين يناضلون من أجل الديمقراطية».

لقد مثّلت الأوضاع السياسيّة الاجتماعية الضاغطة في أمريكا اللاتينية عنصراً مهمّاً في بروز تأويليّات جديدة في الدين، تمحورت بالأساس حول الاستفادة من أجواء الديمقراطية والقبول بالتعددية، سواء في شكلها الديني أو السياسي. وكانت حقبة السبعينيات حاسمة في نصف القارة الجنوبي، لِما مسّ الخارطة الجيودينيّة من تحوّلات أتت آثارها متداخلة ومتناقضة أحياناً. ففي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الكاثوليكية تتبنّى

12 ـ Loris Zanata, «L'America latina, Cattolica ma non troppo», Limes «Quaderni Speciali» 2/2005, p.155.

خيار الفقراء، كان الفقراء يميلون إلى التوجّهات البروتستانتية، وينحون صوب الكنائس البنتكوستالية، وهو ما لم يكن خياراً سياسياً صرفاً؛ بل كان خياراً دينياً إيمانياً بوجه عام[13]. إذ لا تُحقّق الحركات الإنجيليّة رواجا في جنوب العالم ـ بشكل عام ـ بفضل الشبكة الخدماتية فحسب، بل كذلك جرّاء رواج طابع التديّن الذي تنبني عليه، حيث تلتقي الطهرانيّة المميزة لتلك الحركات مع التراث المحلي.

وبالفعل نجح تصدير نموذج الإنجيليات الجديدة من الولايات المتحدة إلى دول الجوار في أمريكا اللاتينية. صحيح لم تكن المشاغل ذاتها في الفضاءين، ولكنّ التعويلَ استند أساساً إلى الشأن الاجتماعي، وإلى تلبية الحاجات الأوليّة، بما خلق كُتلاً بشرية شكّلت رصيداً انتخابياً وجد في برامج بعض الساسة تجاوُباً؛ فقد أملى الوضع الجديد تحوّلاً في الخيارات السياسية لبعض الأحزاب، التي إن لم تكن أحزاباً ذات منشأ ديني فقد غدت تراعي تلك الحشود المتراصّة في المركّبات الكنسيّة العملاقة، والمتشعّبة أنشطتها في الخدمات التربويّة والتعليميّة.

في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الكاثوليكية تتبنّى خيار الفقراء، كان الفقراء يميلون إلى التوجّهات البروتستانتية، وينحون صوب الكنائس البنتكوستالية، وهو ما لم يكن خياراً سياسياً صرفا؛ بل كان خياراً دينياً إيمانياً بوجه عام أيضاً.

لم يعد الأسلوب التقليدي المعتمَد من قِبل الكنائس في جلب الناس عبر خطاب ديني مفارق مجدياً، واستُعيض عنه بأسلوب إغراء جديد يعتمد المقايضة بالخدمة. باتت براغماتية مصلحية متطورة تتحكم بحشود الأتباع وبصنع الرأي العام في أوساط المتديّنين. تولّدَ ذلك التحوّل جرّاء خروج معادلات الخطاب الديني من الحسابات الأُخرويّة الصرفة إلى معانقة الحسابات الدنيوية المتأثّرة بالواقع المتحرك؛ حيث إنّ معطيات السوق ـ كما يقول جمع من علماء الاجتماع الديني ـ هي العناصر الأساسية التي باتت تتحكّم بعملية صنع الأتباع وحشد الناس نحو

13 ـ Ibidem, p. 156.

الخيارات المستجدة[14]. لقد بات التحوّل البارز في الفعل الديني متلخّصاً في الخروج من دائرة التعالي على المجتمع إلى الإصغاء إلى مشاغله.

ضمن هذا التوجه الجديد تميّزت العقود الثلاثة الأخيرة بتسييس الحركات الإنجيلية في أمريكا اللاتينية، بعد أن مثّلت فترة السبعينيات بداية القطيعة مع «السكون الديني» والدخول في «الالتزام السياسي». وممّا هدفت إليه الحركات الإنجيلية أيضاً ـ في بلدان أمريكا اللاتينية ـ خلْق أحزاب دينية تكون الأذرع العلمانية للكنائس، وهو ما سعت إليه جاهدة بالفعل «**الكنيسة العالمية لمملكة الربّ**» (*Igreja Universal do Reino de Deus*) أو «**تجمعات الرب**» (*Assembleias de Deus*) في البرازيل، أو «**الكنائس العملاقة**» في كولومبيا؛ فقد شهدت كولومبيا خلال عام 1989 تشكيل أول حزب سياسي إنجيلي، قدّم في السنة الموالية مرشّحاً للرئاسة؛ وفي البيرو بعد محاولات محتشمة خلال 1980 و1985 دخل الإنجيليون المشهد السياسي؛ وفي البرازيل كان الظهور الأبرز للإنجيليين مع انتخابات المجلس التأسيسي 1986.

احتدّ التنافس الديني مع أواخر ثمانينيّات القرن الماضي، بعد أن أمْست البنتكوستاليةُ الرؤيةَ الدينيةَ الأكثر تناغماً مع الليبراليّة الجديدة، ليتعزّز نفوذ البروتستانتية الجديدة ببروز ظاهرة الكنائس الإنجيلية العملاقة التي لا تكتفي بالوعظ الديني، بل تمارس أنشطة اجتماعية شتّى، تربويّة وتعليميّة ورياضيّة وصحيّة. وضمن هذا التطور الحاصل غالباً ما دعمَ الإنجيليون مرشَّحين معيَّنين للرئاسة موالين لهم، كما حصل في ڤنيزويلا والبرازيل والبيرو وغواتيمالا وكولومبيا. كانت الحالة الأكثر بروزاً مع انتخاب ألبارتو فوجيموري (Alberto Fujimori) في البيرو سنة 1991 وتعيينه نائباً بنتكوستالياً، وكذلك حالة الجنرال إفرايين ريوس مونت (Efraín Ríos Montt) المشايع للبنتكوستالية، الذي اعتلى كرسي السلطة في غواتيمالا في أعقاب الانقلاب العسكري سنة 1982. الأمر ذاته حدثَ في

14 ـ Robert B. Ekelund – Robert F. Hébert – Robert D. Tollison, *Il mercato del cristianesimo*, Università Bocconi Editore, Milano 2008, p. 51 e s.

البرازيل مع ديلما روساف (Dilma Rousseff)، في وقت شهدت فيه الأحزاب الكاثوليكية تراجعاً[15].

في مرحلة تالية لم يكن حرص الإنجيليين على تشكيل حزب ديني في كولومبيا يهدف إلى «مسْحَنَة السياسة»، بقدر ما هدف إلى الفوز بامتيازات تضاهي امتيازات الكاثوليك، من خلال التأكيد على مبدأ حرية التديّن، وهو ما حصل بالفعل مع دستور كولومبيا 1991. نتج عن ذلك اعترافٌ (سنة 1997) بتراتيب الزواج الديني الذي يعقده البنتكوستاليون، فضلاً عن السماح لرجال الدين المنتمين لكنيستهم بالتردد على السجون والمستشفيات. في هذا الجو التنافسي شعرت الكاثوليكية بِالغَبن من تراجع نفوذها، ولكن بقدر ما شكّلت الديمقراطية والتعددية مشكلة بالنسبة إليها غدت حافزاً للتجدد والتطور. يقول عالم الاجتماع الأمريكي روداي ستارك في مؤلّفه «**انتصار الإيمان**»: في أغلب بلدان أمريكا اللاتينية بات الكاثوليك أكثر تردداً على كنيستهم، حيث بلغت نسبة التوافد أسبوعياً في سبعة بلدان (كولومبيا، السلڤادور، الهندوراس، الإكوادور، كوستاريكا، المكسيك، غواتيمالا) 60 بالمائة أو أكثر (كما الشأن في الأخيرة 71 بالمائة).

احتدّ التنافس الدينيّ مع أواخر ثمانينيّات القرن الماضي، بعد أن أمْست البنتكوستاليةُ الرؤيةَ الدينيةَ الأكثر تناغماً مع الليبراليّة الجديدة، ليتعزّز نفوذ البروتستانتية الجديدة ببروز ظاهرة الكنائس الإنجيلية العملاقة.

أبانت العمليـاتُ الانتخابيـة خلال عـام 2018 ـ في كل من كوستاريكا والبرازيل والمكسيك والباراغواي وكولومبيا وڤنيزويلا ـ ظهورَ لاعب مميّز في الساحة السياسية في أمريكا الجنوبية متمثّلا في الحركة الإنجيلية ذات التوجه البنتكوستالي؛ فقد هجرت الكنائس البروتستانتية في مجمل شطر القارة الجنوبي الإحجامَ المعهودَ عن لعب دور سياسي، كما الشأن إبّان عِقدي السبعينيات والثمانينيات، إلى المشاركة في عمليات صُنْع التوجهات السياسية.

15 ـ Loris Zanata, «L'America latina, Cattolica ma non troppo», p. 157.

وما يُلاحَظ في النشاط السياسي للإنجيليين الجدد ـ ذهابه باتجاه الخيارات اليمينية والأحزاب المحافظة. فالمميز اليوم لنشاط الإنجيليين الجدد، بعد أن مرّ من موقع الانعزال إلى موقع يبحث عن كسب غنيمة سياسية من الرأسمال الديني ـ اتّصاف الالتزام السياسي لديه بثلاث خاصّيات: إحداهما: التكتل بما يشبه الحزب المتكوّن من «إخوة الإيمان»، شعاره «الأخ ينتخب أخاه». والثانية: تشكيل جبهة إنجيلية تضمّ أناساً وحركات لا ينضوي أصحابها في الحركة الإنجيلية؛ وبالنهاية التحالف الموسّع مع حركات وقادة غير إنجيليين لغرض يهدف إلى تحوير موازين القوى. نبع هذا التحول مع الإنجيليين من الطهرانيّة إلى الدخول في المشاركة السياسية، جراء إيمان بضرورة إدخال تحوير في التوازنات السياسية المعهودة. لكن يبقى الإنجيليون حملة أجندة ذات أولوية دينية بالأساس، وعلى نقيض «لاهوت التحرّر» لا يميل الإنجيليون إلى النضال الاجتماعي ويجارون توجهات الليبرالية الجديدة.

لا بدّ أن ندرك أنّ قرار الرئيس الأمريكي ترمب بنقل السفارة الأمريكية من تلّ أبيب إلى القدس الشريف قد أتى ـ في جانب منه ـ إرضاءً للمسيحيين الإنجيليّين، الذين يحلمون بتسريع نهاية العالم واندلاع معركة هرمجدون الطاحنة وعودة المسيح. وحين جارت دولة غواتيمالا الولايات المتّحدة في نقل سفارتها من تلّ أبيب إلى مدينة القدس، لم يأت الأمر جرّاء تبعية بلد فقير فحسب؛ فالرئيس الغواتيمالي جيمي مورالس (الفكاهي السابق) هو بروتستانتيّ إنجيليّ درس اللاهوت والاقتصاد، فضلاً عن أنّ عدد الإنجيليين في هذا البلد يزيد على أربعين بالمائة. وجرّاء التقارب الذي نجده للإنجيليين مع اليهودية المسيحانية حصل تناغم بين الطرفين على أساس الالتقاء حول «شخصية المخلّص واستعادة الأرض واللسان للشعب اليهودي» كإحدى البشائر لقيام مملكة الربّ.